الاجماع الشعبي يتحدى حكم الاقلية

العناوين الابرز في ردود الفعل الشعبية التي ولدتها ازمة العشرة اشهر هي العلمانية والديمقراطية والعروبة • ورغم كل ما رافق القتال من بشاعة انسانية ، ومن انحطاط الى دوامة العنف الطائفي ، ومن تخلف في الرؤى السياسية ، فان هذه الشعارات ـ القضايا الثلاث تعود لتطرح نفسها بقوة وحيوية فوق كل تفاصيل الاحداث والصراعات و « الانقلابات » •

وما استجد هذه المرة هو ان هذه القضايا الاساسية تحولت من شعارات مبدئية ونظرية الى قضايا « حياتية » حاسمة من وجهة نظر المواطن العادي الراغب في ممارسة حقه البدائي في العيش ، ناهيك بالعيش بكرامة وحرية وابداع •

ولا يتناقض الوقع المتنامي لهذه القضايا في الصراعات السياسية « العملية » مع تنامي وزن التعبئة الطائفية في « اذهان » عامة الشعب الا في الظاهر • ان للحياة جدليتها المميزة • وهكذا تتقدم المسيرة الاجتماعية رغم تخلف الوعي الاجتماعي ، ورغم عجز الحركات السياسية عن تحمل اعباء المرحلة ، وذلك في دروب تبدو للوهلة الاولى غريبة وغير متوقعة •

ومن هنا تكتسب حركة الاحدب اهميتها الراهنة وقدرتها على تفجير تيارات جماهيرية اصيلة وتقدمية • ان « انقلاب » الاحدب شأن محدود في اهدافه وفي نواياه مخططيه والقائمين به • غير انه يمثل نوعا من الشرخ في السلطة يتيح للجماهير التي مزقتها احقادها الطائفية ان تعود فتحقق نوعا من الوحدة العفوية حول قضايا اساسية : التوازن الطائفي والعلمنة ، والتخلص من القيادات التقليدية التي حكمت البلد منذ الانتداب وبالتالي افساح المجال امام تمثيل شعبي اكثر واقعية وفتح ابواب التغيير ، وهذا الى جانب الاصرار على عروبة لبنان وخاصة بالنسبة لقضية فلسطين ومسألة الدفاع عن ارض الوطن • واكثر من ذلك ، فان ردة الفعل الشعبية الاجماعية على مطلب اقالة رئيس الجمهورية تمثل نوعا من الادانة الصارخة لاساليب الصراع الفاشية والمتخلفة واعادة اعتبار لمبادىء الديمقراطية •

هكذا ينتقم « التاريخ » لنفسه ويندفع الى واجهة الاحداث مؤكدا على ضرورة تجاوز تراث الماضي قبل انفتاح ابواب التغيير • ورغم كل ادعاءات الحداثة فان الواقع يؤكد على ان حل قضايا الديمقراطية والعلمانية والانتماء القومي هي وحدها التي تشكل اساس التقدم لمعالجة الصراعات الاجتماعية الاكثر تعقيدا والاكثر صلة بعصرنا •

لكن طبيعة الصراعات الدائرة في لبنان ، ونوعية شعاراتها ، تحمل ـ رغم كل زخمها القومي ـ نوعا من التعارض مع اوضاع الوطن العربي الكبير • وبدلا من ان تشكل البيئة العربية المحيطة مساعدا للتطور اللبناني ، فانها تمثل احيانا كابحا للتقدم : ان بسياساتها العملية او بقدرتها على الايحاء •

الجماهير في المعترك السياسي

ان السمة الاولى للصراعات اللبنانية هي « جماهيريتها » • وسواء في المعسكر الوطني او حتى في المعسكر الرجعي فان الجماهير ترفع السلاح وتخوض المعترك السياسي وتعبر عن آرائها بحرية • ويبدو القسم الغالب من الجماهير مصمما على تحقيق شعارات الثورة القومية الديمقراطية بالاعتماد على الزخم الشعبي وحده ورغم تخلف الادوات التنظيمية وشراسة القوى الرجعية •

والوجه الثاني ، الخطر ، للصراعات اللبنانية هو المغزى العميق لشعاراتها في مرآة الاوضاع العربية • وعدا التعارض الفاضح فان هذا النمط من الديمقراطية ومن العلمنة المطروح حاليا في لبنان يكشف مدى بعد الاوضاع العربية عن اية ديمقراطية جماهيرية ، ومدى التصاقها بالتخلف الديني الكابح لتطور وعي الجماهير • وحتى اذا استثنينا مطلب مكافحة الحريات الصحافية الذي ورد في وثيقة التسوية التي اعقبت اشهر الاقتتال فان ما تنتزعه الجماهير اللبنانية ، بدمائها ، من حريات سياسية وحزبية ونقابية ، وما تحرزه من تقدم اجتماعي ، ناهيك بالاتجاه نحو العلمنة الكاملة للحياة الشخصية وللدولة يتعارض مع الصحافات « الرسمية » البليدة ، والكبت البوليسي وافتقاد ادنى الضمانات الدستورية في اغلب الاقطار العربية • وبالتأكيد فان الاتجاه نحو العلمنة الكاملة يتجاوز تحديد « دين الدولة » كما يرد في معظم هذه الاقطار •

وتؤكد هذه الملاحظات صحة شعار استقلالية الحركة الشعبية في لبنان عن اية تبعية واي نظام عربي • هذا الشعار الذي عبر عنه بوضوح ، في الايام الاخيرة ، بعض قادة الحركة الوطنية فبمقدار ما يصح القول ان تطور حركة التحرر العربي يجري وفق وتيرة متفاوتة في كل قطر من الاقطار العربية ، وبمقدار ما تفتقد هذه الحركة الى « مركز » طليعي متقدم بصورة شاملة ، فان استقلالية الارادات الشعبية هي احدى ضمانات استمرار التقدم حتى في المراحل التي تتسم بالتراجعات والتباطؤ •

وبعد •• فالصراع مستمر والسلطة المحاصرة تتحدى الاجماع الشعبي ، والازمة معقدة ، والمهم ان تحسم بمبادرة الجماهير الشعبية والقوى الوطنية • فهذا وحده يضمن ان تكون الخيارات المقبلة في صالح التغيير والديمقراطية والعروبة والعلمنة في لبنان •

الكوفية

عندما انطلقت الرصاصة الاولى في الثكنة ، انهمر الرصاص غزيرا في البلدة •• منذ ثلاثة أيام والكل ينتظر الرصاصة الاولى لتعلن انضمام الجنود الشرفاء الى « جيش لبنان العربي » ، في تلك اللحظة انعدمت المسافة بين حقيقة الانسان وقناعه ، رغم محاولات القمع التي قام بها الاشرار الجدد ••

أصبحت الثكنة قرارا لكل الناس : الحزبيون والفقراء •• راحوا يتفرجون على جنودهم ، لاول مرة يرونهم ، العيون عميقة عمق الطريق الى فلسطين ، فيها دمعات رائعة كانشودة المطر •• كانت تمطر حينئذ •• طلب مني الحارس على مدخل الثكنة الدخول معه « كشك الحراسة» اتقاء للمطر ، حاولت التمنع فما اقتنع ، دخلت • « •• أنا عملي في الداخل ، في المكاتب ، لكني أحرس الان لاني أشعر بالفرح عندما يرتاح رفاقي الذين تعبوا طوال اليوم •• الحراسة تطوعية (وأردف معناها بالفرنسية ليقنعني بأنه يعرف بعض ما كان يتفوه به ضباط الامس) فمن يجد نفسه قادرا على الحراسة ، يحرس ، انهم اخوتي الان •• » •

ماذا تغير ؟ الجنود ما زالوا هم ،والسلاح هو (وان كانت الـ م ١٦ والفال قد تطعمت بالكلاشن) والاماكن نفسها ، واللباس ! هو أيضا ، ماذا اذن ؟!

الكوفية !

الكوفية وشاح المارد الخارج من القمقم ، لو لبس الجنود ثيابا حمراء مثلا أو كتبوا « جيش لبنان العربي » على صدورهم ، لا أعتقد انهم كانوا أحدثوا ما أحدثوه في نفوس الناس ، كما حين لبسوا الكوفية•• كالسحر لها فعلها في النفوس •• فهي تحمل تراثا عميقا ، ولو كان دفينا في نفس كل عربي •• بشه الفلسطيني ، ويلفه الجنود الان حول أعناقهم كأنها أيدي كل العرب على مر التاريخ تأتي لتصنع دفئا جديدا حول عروقهم•• انها قبلةحنونة من حبيبة سرية تلوح بيدها للبطل ، من بعيد •

بالامس كان الجندي رقما يمر في الشارع، أما اليوم (معتمرا كوفيته) يمر فينعش روحي وتنكسر كل الحجارة (النظام المرصوص ، الطابور الجامد ونفير الصباح المزعج •••) عن ناظري لاقرأ : « جيش لبنان العربي » على كل الاليات المنسابة ك الخط العفوي الثائر كخط حقل •

★ ★ ★

كلما مررت بجانب تلك الاشارة الضوئية في المدينة المجاورة بتوقف السائق أمام الضوء الاحمر ناظرا بحنق الى الشرطي الواقف في الوسط ، كأنه ابليس يقطع طريق المستقبل أمام طالب العيش ، كثيرا ما كان السائق يجود بالسباب والشتائم للشرطي وما حوله وما وراءه ، وفي أحسن الحالات كان يومىء مسلما بيد مرتجفة أو ممتوعدة •

أمس مررنا •• خفف السائق سيره قبل أن يصل الاشارة ، كان شيئا جديدا يحدث : الاشارة معطلة ، فلا أنوار مصطنعة ، كان السائق فرحا ، انتظر وعندما حان دوره ومحيا الواقف هناك : شرطيا مكوفيا (يضع كوفية حول عنقه) قريبا جدا ، كالمسافة بيني وبين جسدي ، وجهه براق ، فرحا كالعصفور •• « الله معك » وتابع السائق سيره متفائلا من نهاره •

★ ★ ★

وصلت الى البيت في البلدة قادما من بيروت ، وضعت أمي الطعام ، رأيت كوفية حمراء معلقة على تعليقة الثياب ،سألتها ما هذا ؟ ـ اشتراها والدك بعد ولادة « حبش لبنان العربي» في ثكنة البلدة ، ـ « هل يريد الالتحاق بهم ؟ » ـ « لا ! انما تعبيرا عن تضامنه معهم » • لم يكن يهمه سوى أن يؤمن الرغيف لاخوتي ، يسمع أخبار التلفزيون وينام ، يحلم بعمل الغد ، ومستقبل الاطفال كان ذلك ما قبل الامس •

صممت أن أغادر المنزل عندما انتهيت من الاكل ، أفاق والدي في تلك اللحظة « كيفك ؟ شوفي بيروت • خبرنا •• » أحسست انه يريد أن يتحدث بالسياسة ويريد أن يعرف ما يجري ، كأن الامر يتعلق بمستقبل اخوتي أو لقمة عيشهم ، راح يخبرني كيف تمت الولادة ، شرح أحد الجنود أمام البوابة ، لبس كوفيته وصاح الله أكبر ، وانطلق الرصاص عيار ، الجنود وضعوا كوفياتهم على أكتافهم وصرخوا معه ••• روى أبي ذلك مرتين خوفا من أن يكون قد نسي شيئا ، أو ليتمتع أكثر بما يروي ثم أشار الى الكوفية « أبا اشتريت حطة » •

الياس نخلة